النَّزعة النّسبية في القِيَم، ودورُها في مواقف العقل الغربيّ الكولونيالي من الآخَر[1]

■ د. موسى معيرش[1]

ملخّص

تَسعى الورقةُ، التي أعملُ على تقديمها، للكَشف عن العلاقة بين النَّزعة النِّسبية في تحديد طبيعة القِيَم- منذ ظهورها على يدِ السّفسطائيِّين، باتِّخاذِهم لمَقولة الإنسان معيار كلِّ شيء- وبَين الكيفيّة التي أقام عليها هؤلاءِ فلسفتَهُم بصورةٍ عامّة، ورؤيتهم للعالَم والمَسألة القِيَميّة والسِّياسية خاصّةً، وصولًا للرُّؤية الغربيّة المُعاصرة، التي تَنطلقُ في علاقتها السِّياسيّة من هذه الرُّؤية، التي انتقدَها كثيرٌ من المُفكِّرينَ ورجال السِّياسية، مُعتقدينَ أنَّ الغربَ يمُارسُ الازدواجيّةَ في تعامُله مع الآخَر، وأنَّ نظرتَهُ للغَيرِ تَقومُ على تناقُضٍ في تصوُّراته ومُنطلقاته، دون إهمالٍ لبَعضِ مواقف فلاسفة العصور الوُسطى والحديثة الغربيِّينَ، ومُحاولتهم التَّوفيقَ بين المَسيحيّة الشَّرقية الوافدة، صاحبةِ القِيَم الجديدة، والطَّبيعةِ المُتجذِّرة في العقل الغربيِّ، حتى وإنْ تناقضَت مع فلاسفته الكِبار القُدماء، أمثال: سقراط وأفلاطون وغيرهما.

ومن هنا فإنَّ هذه الورقةَ تُحاول أن تُقدِّمَ تَفسيراً لهذه النَّزعة، وتَسعى لفَهم انعكاساتِها السِّياسية والأخلاقية، كما تَسعى لتَقديمِ قراءةٍ نقديّةٍ لها ولتَطبيقاتها.

الكلمات المفتاحية: النَّزعة النِّسبية، الغرب، الرُّؤية، الازدواجية، القِيَم، العالَم.

1 - Relative tendency in values and its reflections on the western view towards the world.

2 - أستاذ دكتور جامعة عباس لغرور - الجزائر.

مقدِّمة

١ - مدخل عامّ

يَهدف العِلمُ في مُجملِه إلى فهمِ الظّاهرةِ التي يَدرسُها، بقَصدِ تفسيرِها، وتَوجيهِها الوُجهةَ التي يَرغبُ فيها العالِمُ، ومن الظَّواهر الجديرة بالاهتمام والدِّراسة، التي تحتاج إلى تفكيك، ظاهرةُ النَّزعةِ الكولونيالية المُسيطِرة على جزء كبير من العقل الغربيِّ المعاصر، وهذه النَّزعةُ تتطلَّبُ السَّعيَ لمعرفتها، وفهم الآليات المُتحكِّمةِ في رؤيتِها للآخَر.

ذلك أنَّ فهمَ هذه الرُّؤية، ومن ثَمَّ تفسيرها والتَّعامل معها بطريقة سليمة وصحيحة، يَقتضي فهمَ خلفيّاتها وتصوُّراتِها الأساسية، وهذا لن يتأتَّى إلا من خلال تحديد مُنطلقاتِها التَّقليدية، وتمَييزها عن المُنطلَقات المُستحدثة، ومن هنا تأتي أهميّةُ دراسة النَّزعة النِّسبية وعلاقتها بهذه الرُّؤية، وهو ما نَعمل عليه في هذه الدِّراسة الجامعة بين الرّاهنيّة المُعبِّرة عن هذه الرُّؤية، وخلفياتها الفلسفية المُمتدّة في التاريخ، ولذا، فإنَّنا نَسعى في هذه الدِّراسة للتَّحقُّق من الفرضية التي نَطرحُها، وهي أنَّ العقلَ الغربيَّ الكولونيالي يَنطلق في رؤيته للأنا والآخَر من الأنا اليوناني القديم، المُتمثِّلِ في الرُّؤية النِّسبية للقِيَم.

أمّا عن الإشكالية التي نَرغب في معالجتِها، فتَدور حول علاقة «النَّزعة النِّسبية» في القِيَم والمعرفة بالرُّؤية الغربية للعالَم، أو بالأحرى للآخَر. وتبعًا لذلك يُمكنُنا أن نُعبرِّ عن هذه الإشكالية بقولنا: هل يُمكنُنا القَول بأنَّ النِّسبيةَ، باعتبارها معيارًا ذاتيًّا في إصدار الأحكام القِيَميّة، ومن ثمَّ التَّعبير عن الرُّؤى والمَواقف، تَقود إلى التَّناقض في اتِّخاذ المَواقف السِّياسية المُرتبطة بالقِيَم الإنسانيّة ككل، تكشف وتُفسِّر الرُّؤيةَ الغربيّةَ للآخَر وتُبرِّرُها، انطلاقًا من مُكوّنها الأساسيِّ اليونانيّ؟ أم أنَّ هذه الرُّؤية تُعبرِّ عن روح المَسيحيّة القائلة بالتَّسامُح، والمُعبرَّ عنه في المقولة المَنسوبة للسَّيد المَسيح أحيانًا، ولبولس أحيانًا أخرى: إذا ضربَكَ أحدُهم على خدِّكَ الأيمنِ

فأدرْ له الأيسَرَ؟

وإذا كان الأمرُ كما ذكرنا، فهل يمُكنُنا تقديمُ تفسير جديد للرُّؤية النِّسبية في مجال الأخلاق والسِّياسة، التي تقوم عليها السِّياسةُ الغربية خاصّةً في نظرتها للقَضايا الإنسانيّةِ الكُبرى، مثل التَّحرُّر والتَّنمية وسيادة الدُّول؟

طبيعةُ الدِّراسةِ تَتطلَّبُ منّا أن نُخضِعَها لأكثرَ من منهج، ولا سيَّما المَنهجان: الاستقرائيّ والتَّحليلي، فنحنُ في حاجة لتتبُّع النَّزعات النِّسبية، المكوِّنة للعقل الغربيِّ، وتَفسيرِها، وبيانِ علاقتها بالعقل الغربيّ.

تَهدف الدِّراسةُ للكشف عن علاقة العقل الغربيِّ المعاصر، بتُراثِهِ التَّقليديِّ اليُونانيّ والرُّومانيّ، وأنَّه ماضيه الذي ما يَزال يُشكِّلُ حاضرَه، ويُحدِّدُ توجُّهاته.

٢- تحديد المفاهيم

قبلَ الحديثِ عن النَّزعة النِّسبيّةِ في القِيَم وانعكاساتِها على الرُّؤيةِ الغربيّةِ للعالَم، لا بدَّ أن نُجيبَ على سؤال سقراط التَّقليديّ، المتُعلِّق بتَحديد المَفاهيم التي تَقوم عليها إشكاليّةُ هذه الوَرقة تباعًا، ولا شكَّ أنَّ أوَّلَ ما يَجب أن نَنظُرَ فيه هنا، يتعلَّقُ أساسًا بسؤالنا عن المَقصود بالنَّزعة النِّسبية في القِيَم.

فبحسب ما وردَ في المعاجم المتُخصِّصة، فإنَّنا نَقصدُ بـ«النَّزعة النِّسبية»: تلكَ الرُّؤيةَ الفلسفيّةَ الأبستمولوجية القائلةَ: بأنَّ المَعرفةَ في أساسها مُختلفةٌ من شخص لآخَر، وتتغيَّرُ وفقًا لتغيُّرِ حاجة الشَّخص وتجربتِه، وفي هذا السِّياق، نجدُ «معجم كامبردج الفلسفي»[1] يَرى أنَّه لا يُقصَدُ بالنِّسبيّةِ[2] إنكارُ نمط معرفيٍّ مُعينَّ، ومنه لا وجودَ لحقيقةٍ واحدة، ذلك أنَّ هاتِه الأخيرةَ تختلفُ بحسب زاويةِ الرُّؤية، أمّا «موسوعةُ روتلج الفلسفية»[3]، فترَى أنَّ النِّسبية تَعني عدمَ وجودِ شيءٍ جيِّد لشخصٍ ولآخر في الوقت نفسه، فقد يكون جيِّدًا لشخص، وسيِّئًا لآخر، وإنَّما توجد نظرتانِ

1 - The Cambridge Dictionary of Philosophy.

2 - Robert Audi: The Cambridge dictionary of philosophy, p790.

3 - Routledge encyclopedia of philosophy.

للمسائل المعرفية والأخلاقية، ومنه يُستنتج عدمُ وجود حقيقة واحدة[1]، وبهذا يمُكِنُنا القولُ بتغيرُّ نظرة النّاسِ واختلافها، بحسب المُنطلَق والهَدف[2].

وهذا ما دفع قدماءَ السفسطائيِّين للتَأكيد على أنَّ الإنسانَ معيارُ كلِّ شيءٍ، فهو معيارُ ما هو موجود وما هو غيرُ موجود، طبقًا لمقولة (بروتاغوراس - Protagoras) الشَّهيرة: الإنسانُ مقياسُ كلِّ شيءٍ[3].

وقد عبرَّ (روبن أبيل – Ruben Apel)، في كتابه: «الإنسان هو المقياس»، عن دعوة صريحة لدراسة المُشكلات الحَقيقية في الفلسفة عن أبعاد هاته النَّزعة، فقال: «الشَّمس تُشرِقُ وتَغرب، وتُشرق مرّةً أُخرى، الفُصول تتوالى... فلماذا نَزعم أنَّ الإنسانَ مقياسُ كلِّ الأشياء؟... إنَّه بسبب أنَّ هذه الدَّوريات الطَّبيعية ليسَت ضرورية، ولا هي فريدةٌ وأبديّةٌ، وبسبب أنَّ الإنسانَ يمُكِنُ أن يأخذَ في حساباته فقط ما الذي يَعرفه الإنسانُ... أنَّ ما يَستطيع الإنسانُ أن يعرفَه يتوقَّفُ على ماهيّةِ الإنسان. إنَّ إدراكَنا هو تساؤلٌ فعّالٌ وليسَ لَقِيًّا سلبيًّا... فنحنُ البشرَ نختارُ ما نُقرِّرُ أن تكون الحقيقةُ عن طريق الفَرضيات التي صمَّمناها لتُجيب على أسئلتنا وتُهدِّئَ شكوكَنا وتُطفي شغفَنا وتُعمِّقَ فَهمَنا... إنَّنا نستخدمُ أدوات المَنطق لبناء مفاهيمنا، ونُنظِّمُ سؤالَنا، لتَوضيح خطابنا، والتَّحقُّق من استدلالنا. فنحنُ نُقرِّرُ أنَّ فُروضًا معيَّنةً تحليليةً هي تَحليليّةٌ، أي أنَّنا سوف نحافظ على استقرار بعض المَعاني في مواجهة الجَحيم والمِياهِ العالية. سوف نُلفِّقُ بعضَ المَقاطع الصَّوتية في عباراتٍ رمزيّةٍ تعضُّ النَّواجذ على مَغزى العالَم»[4].

وعلى هذا الأساس فإنَّه ليسَت المعرفةُ وحدَها نسبيّةً مُتغيِّرةً، وإنَّما أيضًا القوانين، والقِيَم المُختلفة، ومن ثَمَّ المواقف المُتعدِّدة التي يتَّخذها الإنسانُ، وقد تكشَّفَت هذه الرُّؤية منذ البدايات الأولى للفلسفة اليونانية، وكمثال على ما نَذهب إليه هنا، نجدُ أنَّ التُّهَمَ التي حُوكم على أساسها سقراط، وحُكم عليه تبعًا لها، وأُعدم في النِّهاية، تُجسِّدُ بعُمق هذه الرُّؤيَةَ.

فبالنسبة للسفسطائيِّين، فإنَّ (سقراط - Socrates) الخصمُ، وقاطعُ أرزاقهم، مُفسِدٌ بكلِّ

---

1 - Routledge encyclopedia of philosophy,p7318.

٢ - موسى معيرش: فلسفة القيم: مفهومها وطبيعتها، ص٩٤.

3 - Anthony Kenny: A new History of western philosophy; vol. 1, p29.

٤ - روبن أنبيل: الإنسان هو المقياس: دعوة صريحة لدراسة المشكلات الحقيقية في الفلسفة، ص٣٦٥.

المعايير، وهو ليس عدوًّا لهم فحسب، وإنّما هو عدوٌّ للمجتمع الأثيني ككل:

- فهـو بدعوته لآلهة مختلفة عمّا اعتادَ عليه سـكانُ أثينا، لا تتـماشى معَ ثقافتِهم ذاتِ النَّزعة الأسطورية، ومطالبته باستبدالها بآلهة جديدة، حتى وإنْ كانت أكثرَ قَبولاً عقلاً، فهو يُهدِّدُ الوحدةَ السياسيّةَ، القائمةَ على الإيمان بالتَّعدُّد.
- وهو بدعوته للبحث عن حقائق الأشـياء يُهدِّدُ رؤيتَهم للعالَم والإنسان، القائمةَ على تعدُّد الحقائق وتَناقُضِها، وهذا يُشعل بينَهم الفتنَ وبابَ التَّناقُضات.
- وهو بدعوته لتكوين جيلٍ جديد من الشَّباب، وفقًا لقِيَمِه الأخلاقية والسِّياسية القائمةِ على مُطلقيّة العقلِ، فإنَّه بهذا التَّوجُّه يُعتبرَ مُفسدًا للشَّباب، ومُهدِّدًا لاستقرار المجتمع.

ومن ثَمَّ وجبَ التَّخلُّصُ منه، بكلِّ الطُّرق، المشروعةِ منها وغيرِ المشروعة، مع أنَّه في الحقيقة، ليسَت هناك طُرقًا غيرَ مشروعة، فكلُّ ما يُحقِّق الغايةَ فهو مشروعٌ، ما دامَ الإنسانُ هو مَن يَضعُه، ومِعيارَه الأوحدَ، وليس هناك جهةٌ خارجَ هذا الإنسان، بغضِّ النَّظر عن طبيعتِها، يُمكِنُ أن تضعَ معايـيرَ مختلفة يُمكِن أن يَحتكم لهـا النّاسُ، في حالة اختلافاتِهـم، أو يَضعونها كمعايير تُوجِّهُ سلوكيّاتِهم وتُحدِّدُ طبيعتَها.

أولًا: نشأة النَّزعة النِّسبية وتطوُّرها

١ - جذور النِّسبية القديمة

ليـس من الغريب أن يَعمد الباحثـون الغربيُّونَ إلى تجاهُل الدَّور الفاعل الذي لعبَه فلاسـفةُ الشَّرق وحكماؤُه في تطوُّر الحضارة الإنسانية عامةً، بما في ذلك إسهاماتُهم في الفلسفة، فلهؤلاء تصوُّراتُهـم الخاصّة القائمةُ على نظرية المَركزيـة الغربيّة، التي تَنطلق من فرضيّةٍ صارَت عندَهُم مُسـلَّمةً، وهي المُعجزة اليونانية، فكلُّ شيءٍ بدأ عند اليونان: العلوم، المعارف، الفلسفة، الفنّ، فكان التفـوُّق قديمًا لهذه الحضارة، التي هي منبعُ الحضارة الغربية في عصرنا، في حين أنَّ بقيّةَ شعوب الأرض مجرَّدُ همجٍ وبَرابرة، لا يُمكنُ أن يكونوا مصدرًا للقِيَم الإنسانية بمختلف أشكالها.

لكـنَّ الغريبَ أن يَحذوَ حذوَهُم بعضُ الباحثـين والمُفكّرين الشَّرقيِّين، بدَعوى الموضوعية والحياديـة، في حين أنَّ حقيقةَ أمر هؤلاء مُخالفةٌ تمامًا لدَعوى الموضوعية، فالمسـألة لا تَعدو أن تكونَ تقليدًا للباحثين الغربيِّين، وفي أحسـن الأحوال، تَجنُّبًا لمشاقِّ البحث عن الجديد في

ثنايا الأعمال العلمية التي لم تأخُذْ حقَّها من الدِّراسة، وهذا ما يَجعلهم يُبرِّرونَ عجزَهُم المعرفيَّ بموقف إيديولوجيٍّ يَختبئ وراء نظريات عرقيّة، وهذا ما يَتنافى مع هذا الزَّعم تمامًا.

وكلُّ ذلك يَدفعنا إلى تجنُّب التَّجاهُل، والعودة إلى تراث هذه الأمم للكشف عمّا يَذخر به من إسهامات كبيرة في هذا الشّأن، دونَ أن يَحملنا هذا الموقف المنهجيُّ والمعرفيُّ الدَّقيق على التَّحامُل أو المغُالاة، مُستعينينَ في هذا السِّياق بنظريّة سقراط القائلة بأنَّ الفضيلةَ وسطٌ بين رَذيلتَين: هما الإفراط والتَّفريط، وبالتالي فلا إقصاءَ ولا مبالغة. بمعنى أنَّنا لا نُحاولُ إعطاءَ قيمة أكثرَ ممّا يَستحقُّ لهذا الفريقِ، وفي الوقت نفسِه لا نُحاول تجاوُزَه، أو التَّقليلَ من دَورِه المعرفيِّ أو التاريخيِّ.

على عكس التصوُّر التَّقليديِّ الذي وجدناه يَنفي وجودَ تصوُّرات مختلفة للقِيَم في الفلسفات الشَّرقية، وبالأحرى ما اتُّفِقَ اصطلاحًا على تسميتِه بالفِكر الشَّرقيِّ القَديم، فإنَّنا نجدُ عدّةَ تصوُّرات، منها المتُوافق ومنها المتُعارض، كما أنَّ هذه التصوُّرات المُختلفة ليسَت وليدةَ مدرسةٍ أو شخصية واحدة، وإنَّما هي معروفةٌ عند فئات عديدة من الحكماء، وهذا يَجعلُنا غيرَ قادرين في هذه العُجالة على أن نتطرَّقَ إليها كافّةً، وإنَّما نكتفي بإشارات مُعبرِّة ومُمثِّلة له.

وفي هذا السِّياق، يمُكننا أن نُشير من البداية إلى أنَّ النَّزعة النِّسبية لم تَظهر البارحةَ فحسب، أي في وقت قريب، وإنَّما كان لها تاريخٌ يَعود إلى أزمنة غابرة، وهو ما وقفْنا عليه عندَ عودتِنا للفكر الشَّرقيِّ القَديم، كما هو شأنُ العراقيِّينَ القُدماء، خاصةً فيما يُعرف بجدليّة العبدِ والسَّيد، حيثُ نقفُ على حوار بينَهما[١]، يُناقِشانِ فيه موضوعاتٍ مُتنوِّعةً، منها: الزَّواج، الثَّورة، وغيرُهما، كما وجدنا مُمثّلين لها في الفلسفة المادِية الهندية[٢].

أمّا في الفكر الصِّيني، فلم يَغبْ هذا الاتِّجاهُ أيضًا، وهو ما عثرنا عليه عند الحكيم (لاوتزو - Laozi)، الذي وجدناهُ يَنطلق من مسلَّمة مفادُها: أنَّ الحكيمَ يَسعى دومًا إلى اكتشاف المعارف، ويُطوِّرُ مداركَه في كلِّ الحالات، دونَ أن يكون قادرًا على اكتشاف حقيقةِ المعرفة، ويَبقى يَعتقدُ أنَّ ما يتوصَّلُ إليه عبارةٌ عن معارفَ يقينيّة، غيرَ أنَّ هذا الوَهمَ سرعان ما يَنهار عندما يَبلغ من العمر سنَّ الخمسينَ، وهو موقفٌ عبرَّ عنه في كتابه عندما اعتبرَ أنَّ: «الحكيمَ شيمتُه التَّواضعُ، لأنَّ

١ - انظر: موسى معيرش: القيم في الفلسفة الشرقية.
٢ - موسى معيرش: فلسفة القيم: مفهومها وطبيعتها، ص٩٤.

الإنســانَ متى يَبلغ الخمســينَ من عمره، فقد آنَ له أن يُدركَ أنَّ المعرفةَ شيءٌ نسبيٌّ، وأنَّ الحكمةَ شيءٌ سهلُ العطب... وهو يتَّفق معَ السُّذَّج أكثر ممّا يتَّفق مع العلماء.»[1].

غـير أنَّ هذه النَّزعةَ (النِّسـبية) كانَت الأكثرَ بروزًا في الفلسـفة اليونانية، من خلال ما عبرَّ عنه كثيرٌ من فلاسفتها، وبالخصوص ما قدَّمَه السفسطائيِّين في مختلف مجالات الفلسفة: الوجود، المعرفة، الألوهية، الفنّ والجمال... وغير ذلك من المسائل.

أمّا في العصور الوسـطى المسيحية، فرغم تبايُن وجهات النَّظر فيما يتعلَّقُ بتَصنيفِ ما أنتجته تلك العصورُ، بينَ قائلٍ إنَّه فلسفةٌ، وقائلٍ إنَّه لاهوتٌ، فإنَّ المُؤكَّدَ أنَّ كثيراً من مُفكِّري هذا العَصر، وَثنيِّن كانوا أم مسـيحيِّين، قد أخذوا كثيراً من تصوُّرات النَّزعة النِّسـبية، كما هو شـأن النَّظر في جدلية الدِّين والدَّولة، أو جدليّةِ الفلسفةِ والدِّين، خاصّةً فيما يتعلَّقُ بالنَّظر للآخر بعامّةٍ والمُسلِم بصورة خاصّة.

بل إنَّ العقيدةَ المسيحيّةَ، وطبيعةَ السيِّد المَسيح، كانا محلَّ جدلٍ ونقاشٍ، وتبايُنٍ في وجهات النَّظر، فمنهم مَن ذهب إلى القول بالتَّوحيد، كما هو شـأنُ الأريوسيّة، وذهبَ آخرونَ إلى القول بالطَّبيعة المُزدوجة، كما هو معَ «الإثناسيوسية»[2]، وحتى رجال «عصر الإصلاح»: (كالفن - John Calvin)، (زونجلي - Zwingli)، (مارتن لوثر - Martin Luther)، كلٌّ منهم قدَّمَ رؤيةً تُعبِّرُ عن قوميّتِه وفهمِه الخاصِّ للدِّين، وتُظهِرُ وجهةَ نظرِه، وإقصاءَهُ لوجهات النَّظر الأخرى.

٢ - النِّسبية الحديثة وأبعادُها

أمّا في الفلسـفة الحديثة، فقد تقوَّت النَّظرةُ النِّسبيةُ، مع الاكتشافات العلميّةِ الحديثةِ، وظهورِ المذاهب الأخلاقية المختلفة، أمثال النَّفعيّةِ، البرغماتية، فضلاً عن المدرسة النَّفسية والاجتماعية.

يُعَدُّ الاتِّجاهُ النَّفعيُّ أحدَ أهمِّ الاتّجاهات الفلسـفية التي عرفَتْها البشريّةُ في مختلف عصورها

١ - ول ديورنت: قصة الفلسفة، ج٦، ص٣٦.

٢ - قانون الإيمان الأثناسيوسي (المعروف باللاتينية باسم Quicumque vult) هو ملخَّص مُبكِّر للعقيدة المَسيحية. ويُعتقَد تقليديًّا أنَّ كاتبه أثناسيوس، رئيس أساقفة الإسكندرية، وكُتب في المقام الأول لدحض البدع المتعلِّقة بألوهية يَسوع المسيح وإنسانيته، مثل: الأريوسية والنسطورية والمونوفيزيتية. ينصُّ قانون «الإيمان الأثناسيوسي» تقليديًّا على ما يلي: «مَن يُريد أن يُخلصَ عليه قبلَ كلِّ شيءٍ أن يتمسَّكَ بالإيمان الكاثوليكي. ومن لا يَحفظُه كاملاً ومُقدَّسًا فلا شكَّ أنَّه يَهلِكُ إلى الأبَد».

وأمصارها، فقد عرفَه أهلُ اليونان على يد بعض الفلاسفة من أمثال: أبيقور، كما عرفَتْه مختلف الأممِ التي سبقَتْهم أو عاصرتْهم، كما هو الأمرُ مع الصِّينيِّينَ، علاوةً على الأمم التي جاءَت من بعدهم مثلِ الهيلينيِّين، ولم يَختلف الأمرُ بالنِّسبة للمُسلمين، فقد قامَت الشَّريعةُ على ما يُعرَفُ بالضَّوابط الشَّرعية السّاعيةِ إلى تحقيق مقاصدِ الشَّريعةِ أو ما يُسمَّى بالمقاصد الكلِّية.

إلا أنَّ المتُعارَفَ عليه أنَّ هذا الاتِّجاهَ المتبلورَ لم يتحوَّلْ إلى نظريّةٍ فلسفيّةٍ متكاملة إلا في الفلسفة الإنجليزية الحديثة مع كلٍّ من الفيلسوفَين: (جرمي بنتام - Jeremy Bentham) (١٧٤٨-١٨٣٢م)، و(جون ستيوارت مل - John Stuart Mill)، فماذا نقصدُ بهذا الاتِّجاه؟

يُحدِّدُ معجمُ علمِ الاجتماع [١] المقصودَ بهذا الاتِّجاه على أنَّه: «عبارةٌ عن فلسفة أخلاقية وسياسية نشأَتْ في بريطانيا العُظمى في عهد الثَّورة الصِّناعية، ما بينَ نهاية القرن الثامنَ عشرَ والقرن التّاسعَ عشرَ، هذا التيّارُ الفِكريُّ يَرجع إلى مبدأ واحد: مبدأ النَّفع، بوصفه الوَسيلةَ التي تَجمع المَصالحَ الخاصّةَ والعامّةَ، وبفَضلِها أيضًا يَحصل الرِّضا الفرديُّ والعامُّ» [٢].

من جهة أخرى نجدُ من يَنظر إلى مذهب المَنفعة [٣] من زاويتَين مُتكاملتَين، فهو من جهة نظريّةٌ فلسفيّة، ومن جهة أخرى هو نَظريّةٌ اجتماعيّةٌ وأخلاقية، فأمّا كونُه نظريّةً فلسفيّةً فيَعود ذلك إلى ارتباطها بـ(جرمي بنتام)، الذي يَعتبر أنَّ الأخلاقَ وعلمَ النَّفس يَقومانِ على فكرة مفادُها أنَّ اللَّذةَ أفضلُ من الألم.

ووفق هذا الاعتبار يكون هذا المنطلَقُ مُوجِّهًا للسُّلوك بالرغم من وجود بعض العوائق التي تَحول دون ذلك، مع هذا فإنَّ الغايةَ التي يَسعى الجميعُ إلى تَحقيقها تتمثَّل في الوصول للسَّعادة الكبرى، أمّا كونُها نظريّةً أخلاقيّةً واجتماعية فلِتأكيدِها على أنَّه لا يُوجَدُ شيءٌ مرغوبٌ فيه سوى اللَّذة، وهذا يَجعل وظيفةَ القواعد الأخلاقيّة محصورةً في تحصيل اللَّذة وتجنُّب الألم [٤].

فالقِيَمُ تكون مقبولةً وصحيحةً بقَدرِ ما تُحقِّقُ من مَنافعَ، وتكونُ عكسَ ذلك، أي خاطئةً، إذا ما اتَّجهَت لغيرِ مَنفعةِ الإنسان، إلا أنَّ المَنافعَ قد تتعارض بينَ الناس، بل وعند الشَّخص الواحد،

---

1 - Dictionnaire de Sociologie.

2 - Boudon autres: Dictionnaire de sociologie, p241.

3 - Utilitarianisme.

٤ - محمد عاطف غيث: قاموس علم الاجتماع، ص٤٦٣.

وهـذا يَجعل القِيَمَ تناقضُ، ويُصبِحُ من الصُّعوبةِ بمـكان الحديثُ عن توافقٍ حولَها، فهل هناك إمكانيّةٌ للتَّوفيق بينَ منفعةِ الفردِ ومنفعةِ الجماعة؟

أمّا في القرن التاسـعَ عـشرَ، فظهرَت البرغماتية في العالَم الجَديـد، وهي في الواقع عبارةٌ عن مذهبٍ فلسفيٍّ أمريكيٍّ، مَثَّلَه كثيرٌ من الفلاسفة، كما هو شأن (ويليام جيمس - William James)، و(سنادرس بيرس - Sanders Peirce)، و(جون ديوي - John Dewey)، ويُعَدُّ هذا المَذهب أساسَ الحياة الأمريكيةِ منذُ تأسيسِ هذه الدَّولة وإلى غاية اليَوم. وتَجدر الإشارةُ إلى أنَّ هذا المذهبَ يُعدُّ امتدادًا لمذهب المَنفعة، وإنْ كانَ أكثرَ منه تعقيدًا وحضورًا في الوقت نفسه في عصرنا.

كما أنَّها تُعدُّ من أهمِّ الفلسفات المعاصرة، وأكثرِها إثارةً للجدل، ليس بينَ المُختصِّينَ فحسب، بـل تعدَّى ذلك إلى عامّة النّاسِ، حيث نجدُ مَـن يَجعل منها فضيلةَ الفَضائلِ ودليلاً على النَّباهةِ والفِطنـة، في حين نجدُ آخريـنَ يَعتبرونَه عنوانًا للوَضاعة ودَليلاً على النَّذالة والخِسّـة، فما هي البرغماتية كفلسـفة؟ هذا من جهةٍ، ومن جهة أُخرى ما هي نظرتُها لطبيعةِ القِيَم؟ هذا ما نُحاول مناقشتَه والإجابةَ عنه فيما يلي.

٣ - النِّسبية القِيَمية المُعاصرة

مصطلحُ البرغماتية تعريبٌ للكلمة الإنكليزية pragmatism والفرنسية pragmatisme، والتي تُترجَـمُ عـادةً إلى: «الذّرائعية»، وفي بعض الأحيان إلى: «التّداوليـة»، وهي عبارة عن: «مذهب فلسفي-سـياسي، يَعتبر نجاحَ العمل هو المعيار الوحيد للحقيقة، فالسِّياسيُّ البراغماتيُّ يدَّعي دائمًـا أنَّه يتصرَّفُ ويَعمل على النَّظـر إلى النَّتائج المُثمِرة التي قد يُؤدِّي إليها قرارُه، وهو لا يتَّخذ قرارَه بوحي من فكرة مُسـبقة أو إيديولوجية سياسـية مُحدَّدة، بل مـن خلال أخذِه بعَينِ الاعتبار للنَّتيجة العَملية المَنشودة.»[١].

والمتابعُ لهذه الفلسـفة يَجد أنَّها انتشرَت انتشارًا كبيرًا في الولايات المتَّحدة الأمريكية، حيث تبلورت خطوطُها الكُبرى في السَّـبعينيّات من القرن التاسع عشر، في كتابات أعلامِها الكبارِ من أمثال: (ساندرس بيرس) (١٨٣٩-١٩١٤م)، و(ويليام جيمس) (١٨٤٢-١٩١٠م)، وأخيرًا (جون ديوي) (١٨٥٩-١٩٥٤م).

---

١ - عبد الوهاب الكيالي وآخرون: موسوعة السياسة، ج٢، ص٧٦٧.

وما يَجعلُ هذه الفلسفةَ مُميَّزةً على كثيرٍ من الفلسفات أنَّها عدوٌّ الفلسفة الماركسية في الدَّرجة الأولى، وفي الوقت ذاته تتَّفق معها في كونها لا تهتم بالمسائل النَّظرية للفلسفة، بقدر اهتمامها بالمسائل العمليّة، والماركسيّةُ تُؤكِّدُ أنَّ وظيفةَ الفلسفة تكمُنُ في تَنوير الطَّبَقة الكادحة، وحَملِ هُمومِها في مواجهة البرجوازية والإمبريالية الرأسمالية، على حين أنَّ البرغماتيّة تَذهبُ إلى أنَّ وظيفة الفلسفة تَسعى إلى تحقيق الأهداف الإنسانية، وتَوضيح الوسائل الكفيلة بتَحقيقها، فالفلسفة عليها أن تتحوَّلَ إلى أداةٍ تَخدم الإنسانَ في حياته العملية.

ويُمكِنُنا أن نُلخِّصَ ما تَذهب إليه هذه الفلسفةُ على النَّحو التالي: «الإنسانُ مُكرهٌ على العَيش في عالَم لاعقلاني، يتعذَّرُ فَهمُه، وأنَّ محاولتَنا لإدراك الحقيقة الموضوعية ستَبوء حتمًا بالفَشل، ولذا يَجب النَّظرُ إلى مختلف النَّظريات العلمية، وإلى الأفكار الاجتماعية والقِيَم الأخلاقية، نظرةً أداتيّةً، أي من وجهةِ نظرِ مَنفعتِها في تحقيق أهدافِنا، إنَّ ما يَنفع الإنسانَ، ما يعود عليه بالنَّجاح، هو الصَّحيح، هو الحَقيقة»[1].

أمّا فيما يخصُّ النَّزعةَ الاجتماعية، فنَقف عليها عندَ (دوركايم - Durkheim) الذي يَرى في مختلف كتاباته أنَّ مشكلةَ القِيَم الأخلاقية، بوصفها مشكلةً اجتماعيّةً وليست فردية، تُؤثِّرُ وتتأثَّر بمختلف التَّغيُّرات الاجتماعية التي تَحدث في المجتمع الذي تَنشأ فيه، دون أن تستقلَّ عنه، فهي منه وإليه، وبذلك فإنَّ القِيَم الأخلاقية تَختلف من مجتمع إلى آخر، بل تختلفُ حتى داخلَ المجتمع الواحد من فترة تاريخية إلى أخرى.

فالأخلاقُ ليسَت من صُنع الأفراد، بل هي مِن صُنع المجتمع، وهذه المُسلَّمة الدوركائمية يُعبرِّ عنها في كتابه التَّربية الأخلاقية L' Education morale حينَما يَقول: «إنَّنا نبدأُ بالشُّعور بالقواعدِ الأخلاقية على نحو سَلبيٍّ، ونجدُ أنَّ التَّربيةَ تَحملها إلى الطِّفلِ وتَفرضُها عليه، فتَبسط سلطانَها ونفوذَها، ولكنْ في وُسعنا أن نبحثَ عن طبيعتِها، وعن شروطِها البَعيدة أو القريبة، أو عن سبب وجودها، وبكلمةٍ واحدة إنَّنا نَستطيع أن نتَّخذها موضوعَ علمٍ، فإذا فرضْنا أنَّ هذا العِلمَ قد انتهى واكتملَ لأصبحنا سادةً العالَم في الأخلاق، ولرأينا أنَّ الأخلاقَ لم تعدْ أمرًا خارجًا عنّا، بل إنَّها تُقدِّمُ لنا نسقًا من الأفكار الواضحة المتُميِّزة، التي نُدرِكُ كلَّ صلاتِها بعضِها ببعضٍ»[2].

---

1 - Instrumental.

٢ - قباري؛ محمد إسماعيل: علم الاجتماع والفلسفة، ج٢، ص.ص. ١٤٢-١٤٣.

بعدَ استعراضِنا لمفهوم النَّزعة النِّسبية، والكيفيّةِ التي نشأتْ بها وتطوَّرَت في الفلسفة الغَربية بنَوع من الاختصار، يمُكِنُنا أن نَستخلِصَ أنَّها تُعبرِّ عن رؤية فئات واسعة من النّاس في مختلف الحضارات والأمم، وفي مختلف العصور، غير أنَّ اللافتَ للنَّظر أنَّ الفكرَ الغربيَّ الحديثَ والمعاصرَ أكثرُ اعتناقًا لها، وهذا يَقودنا للتَّساؤُلِ عن انعكاس ذلك على مواقفِه السِّياسية والفلسفيّةِ والدِّينية، وحتى الاقتصادية والعسكرية.

ثانيًا: الأنا والآخر في العقل الغربي الكولونيالي

ولكنْ قبلَ ذلك نودُّ التَّوضيحَ أنَّنا نقصِدُ بالعالَمِ هنا هو الآخَر، في مقابلِ الفِكر الغربيِّ، ولا نَقصد بذلك الكونَ، وما شابَه ذلك، فالعالَم هنا هو الإنسانُ غيرُ الغربيِّ، وكأنَّنا نتحدَّثُ هنا عن موقف الفكرِ الغربيِّ، والغربِ عمومًا من الغَير، الذي يَصِفُه سارتر في كتاباته بالجَحيم.

هذا التَّوضيحُ، يَضعنا من جديد أمامَ تساؤلٍ حقيقيٍّ، هل الغربُ هنا هو المُتأثِّرُ بالنَّزعة النِّسبيّة أم يَشمل ذلك حتى القائلينَ بمُطلقيّةِ القِيَم، من أنصار الاتِّجاه العَقلي، الذين يتلخَّصُ موقفُهم في مقولة ديكارت: «أنَّ العقلَ أعدلُ الأشياءِ جميعًا بينَ الناس».

كما يَقودنا من جهة أخرى للتَّساؤل حول مصادر العقل الغربيِّ بخاصّة، والحضارة الغربية بعامّة، من خلال ما كُتب من دراسات، تتبّعَت مسارَ العقلِ الغربيِّ وتَجليّاته المُختلفة، إذ يمُكنُنا أن نُلخِّصَ أهمَّ المصادرَ التي شكَّلَت العقلَ الغربيَّ، كما لخَّصَها أعمدتُه، أمثال ول ديورنت في كتابه الرائع: قصة الحضارة، أو ما عبرَّ عنه روجيه غارودي في كتابِه حوار الحضارات، وما تحدَّث عنه هيجل في تاريخه للفلسفة، وشوبنهاور، ونتشه، في كثير من الأعمال، وغيرُهم من أساطين هذا الفكر.

- الحضارة اليونانية، بمختلف اتِّجاهاتها وفلاسفتها.
- الحضارات الشَّرقية، بمختلف تجلِّياتها: هندية، صينية، فارسية، مصرية.
- اليهودية، التَّوراتية والتلمودية.
- المسيحية البولوسية.
- الإسلام.
- دون أن نَنسى الحضارات الرُّومانية، التي عبرَّت عنها وسيطرَت عليها لقرونٍ طويلة.

ومـع هذا التنوُّع، فـإنَّ العقلَ الغربيَّ بقـيَ وفيًّا لجملة من التصـوُّرات دون غيرها، فرغم أنَّ المَسـيحيّةَ ظاهريًّا أصبحَت ديانتَه الأكثرَ انتشارًا، وخاضَ لأجلها حروبًا كثيرة، غير أنَّ الحقائقَ التي كشف عنها العصرُ الحديث والمعاصر، وخاصّةً أثناء الحركة الاستعمارية، بدايةً من سقوط غرناطة عام١٤٩٢م، فقد ابتعدَتْ بشـكل كبيرٍ عن هاته القِيَم، فهي لم تعدْ تَحكم علاقةَ الغرب بالعالَمِ ونظرته إليه، فهو يقرأ المَقولةَ المَنسوبةَ لـ(بولس - Paul): إذا ضربكَ أحدُهُم على خدِّكَ الأيمنِ فأدِرْ له الأيسرَ، تعبيراً عن التَّسامُح، دون أن يأخُذَ بها، وإنَّما أصبحَ يأخذُ بمَقولةِ، (هوبز - Hobbes): الإنسانُ ذئبٌ لأخيه الإنسانِ، وأفكار الفيلسوف العاجز (نيتشه - Nietzsche)، الدّاعية للقَضاء على الضُّعفاء والتَّخلُّص منهم.

وهـذه النَّزعة تَظهـر حتى عند رجال الدِّيـن الغربيِّين الكاثولكيِّين القُدمـاء، ويَكفي في هذا السِّياق أن نُشير للرِّسالة التي بعثَها جيروم إلى القديس أوغسطين:

Do you, who are young, and who have been appointed to the conspicuous seat of pontifical dignity, give yourself to teaching the people, and enrich Rome with new stores from fertile Africa. I am contented to make but little noise in an obscure corner of a monastery, with one to hear me or read to me.”[١]

ومَضمون النَّصّ صريحٌ وواضحٌ في أنَّ الموظَّفَ الكنسيَّ الشّابَّ، مثلُه مَثَلُ غيرِه، فهو مكلَّفٌ بمُهمّة للغَرب بالدَّرجة الأولى، تَتمثَّل في نقل الخَيراتِ إليه من شمال إفريقيا، وليس هداية الناس كما هو مُعلَنٌ، وإذا أردنا أن نُبرِزَ بعضَ المواقفِ، التي يتَّخِذُها العقل الغربيُّ، فسوف نجدها وفيةً لـ(بروتاغوراس - Protagoras) المحارب للسيِّد المسيح، في عصرنا.

خاتمة

من النّاحية التاريخية، نَذكر الحركةَ الاسـتعمارية الحديثة، التي قادَت إلى اسـتعبادِ الشُّعوب الأخرى، والقضاءِ على شعوبٍ بأكملِها والحلولِ محلَّها، مثل ما فعلتْه أمريكا في الهنود الحمر،

1 - Jerome: Correspondence of Augustine and Jerome concerning the Latin Translation of the Bible. <https://www.bible-researcher.com/index.htm>.

فقد احتلَّت أرضَهُم، وشرَّدَتْهم، بل إنَّها عملَت على إبادتهم، وهذا ما يُمكِنُ ملاحظتُه من خلال تناقُص أعدادهم، فبعد أن كانَ عددُهم يُقارب الخمسينَ مليونًا قبلَ مجيء (كريستوف كولومبس - Christopher Columbus) في القرن السادس عشر، لم يَتبقَّ منهم إلا بضعة آلاف حاليًّا.

وحتى السِّينما في هوليود تُقدِّمُهم كبرابرة مُتخلِّفينَ يَستمتعُ البطلُ بقنصِهم، ويُرقَّى الجنديُّ الذي يَقتل منهم أكبرَ عدد. كما وقفْنا على استعبادِ الأفارقة ونَقلِهم للعالَم الجديد، فضلًا عن استعمارِ قارة إفريقية وسلْبِ ثرواتها لغاية اليوم. وفي هذا السِّياق، يُمكِنُ الإشارةُ إلى الاتِّفاقيات التي بموجبها استقلَّتِ المَغربُ، والتي تمَّت سنة ١٩٥٦م، فقد نصَّتْ على الحفاظ على الامتيازات الفرنسية في المغرب لمئةِ سنة قابلةٍ للتَّجديد.

والأمرُ نفسُه، بالنِّسبة لاتِّفاقية استقلالِ تونس، فقد احتفظَتْ من خلالها فرنسا بكثيرٍ من الامتيازات، وهو أيضًا ما برزَ مع بقية المُستعمرات الإفريقية والأسيوية، وهو نفسُ النَّهج البريطاني والأمريكي.

أمَّا ما يتَّصل بفلاسفة الغرب ومُنظِّريه، فقد وقفنا في السَّنوات الأخيرة على الدَّعوة لصِدام الحضارات، والقضاءِ على الآخر، من خلال ما عبرَّ عنه (صموائيل هنتنجتون - Samuel Phillips Huntington)، و(فرنسيس فوكوياما - Francis Fukuyama)، وما تجسد في غزو العراق وأفغانستان، وليبيا وسوريا.

الهيمنةُ على العالم، وازدواجيَّةُ المعايير، ففي الوَقت الذي نجدُ الغربَ يَسعى لنشر العلمانية وروحِ التَّسامح في العالَم، نجدُه يتَّخذ الشِّعارات الدِّينية المُتطرِّفة، كأساسٍ يُقيم عليه سياساته، وهذا ما عبرَّ عنه من أيام وزير الخارجية الأمريكي (بلنكن - Blinken)، في فلسطين المحتلَّة، أمام الكنيست الصهيوني: «لم آتيكُم كوَزيرِ خارجيّةِ الولايات المتَّحدة فحسب، وإنَّما كيَهوديٍّ فرَّ والدُه من القَتل»، لكنَّ هذا الوزيرَ نَسي أو تجاهل أن يقول لنا: ممَّن فرَّ والدُه، أَلَمْ يَفِرَّ من الغَرب نفسه النَّازي.

الانفراد بأسلحة الدَّمار الشّامل، والتَّهديد باستخدامها كلَّما أحسَّ بضعفِ حجَّته، وتَحريكه للأساطيل وحاملات الطّائرات حتى ضدَّ الشُّعوب غير المُسلَّحة، إمعانًا في عنجهيّته، في الوقت الذي يَدعو للقَضاءِ على الدِّين الإسلاميِّ، ووصفِ المؤُمنينَ به بالإرهاب، نجدُه يُعِدُّ لـ«معركة هرمجدون»، التي تَقول عنها كتبُه المُقدَّسة، أنَّها ستكون في آخِر الزَّمن، أمّا من النّاحية الاقتصادية،

فهو يمُارسُ النَّهبَ، ويَجعل أسواقَ الغَيرِ مُجرَّدَ أماكنَ لتَصريف سِلعِه.

وبالنَّظَر للحربِ التي تَشنُّها دولةُ الاحتلال الصهيوني على غزة هاتِه الأيام، تَبرز لنا القِيَمُ الغربيّةُ الحَقّــة، فبعد أن ظَلَّ الغربُ يُوهِمُنا بقِيَم العدالة وحُقوق الإنســان، نجـدُ دُولَه تَقف بكل قوّتها وأســاطيلها في وجهِ شعبٍ أعزلَ لا يَملك حتى خبزاً وحليبًا لأطفاله، وتُحاصِرُ هذا الشَّعبَ، بل تُرسِلُ المرُتزقة لمساعدةِ الاحتلال الصهيوني.

ذلك أنَّ هذا الشَّعبَ بالنِّسبة لها لا يَستحقُّ الحياةَ، على عكس الشّعب الأوكرانيِّ الذي تُرسِلُ إليه الأســلحةَ والغذاءَ والدَّواءَ لتُمكِّنَه من الوقوف في وجه الرُّوس، ذلك أنَّ الرُّؤية النِّســبية هي في الحقيقة التَّعبيرُ الصَّحيحُ والدَّقيق للعالَم الغربيِّ، فهو يَرى من خلالها مصالِحَه، وللأسف لا تَقفُ سَــقطات هذا العالَم عند ساســته، بل نجدُها أيضًا عند فلاسفتِه أمثال هابرماس الذي ظَلَّ يَنشر الأكاذيبَ حول ما كان يُطلِق عليه قِيَمَ التَّواصُل، بعد أن انكشفَت رؤيتُه الحَقّةُ بتأييدِه لإبادةِ أهل فسطين.

في الأخير يمُكنُنا أن نقولَ إنَّ مَقولةَ (جورج بوش الابن - George W. Bush) لخَّصَت بصدق رُؤيةَ الغربِ البرغماتية الذّاتية للآخر، وهي: مَن لمْ يكنْ معَنا فهو ضدّنا، كما أعجبتني مقولةٌ كتبَها مواطنٌ تونسيٌّ، ورفعَها في مظاهرةِ احتجاجًا على ما يَقوم به الصَّهاينةُ، من تَقتيل في فلسطين «أنَّ حقوقَ الإنسان التي يُنادي بها الغربُ لبعض النَّاسِ، وليسَت لكلِّ النّاسِ».

نتائج الدراسة

- العقــل الغربيُّ المعُــاصرُ الكولونيالي شــديد الارتبــاطِ بالعقل اليُونــانيِّ والرُّومانيّ القديمَين.
- العقلُ الغَربيُّ لا يَرى إلا من خلال مصالِحِه.
- المَسيحيّةُ، رغم كونها من مُكوِّنات هذا العقل، إلاّ أنَّها تأتي في الدَّرجة الثانية.

المصادر والمراجع

باللغة العربية

- روبن أنبيل، الإنسان هو المقياس: دعوة صريحة لدراسة المشكلات الحقيقية في الفلسفة، تر. مصطفى فهمي، القاهرة، المركز القومي للترجمة، ٢٠١١م.
- محمد عاطف غيث، قاموس علم الاجتماع، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠٠م.
- محمد إسماعيل قباري، علم الاجتماع والفلسفة، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعة، ٢٠٠٠م.
- عبد الوهاب الكيالي؛ وآخرون، موسوعة السياسة، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، د ت.
- موسى معيرش، القيم في الفلسفة الشرقية، ط١، دار الروافد، بيروت، ٢٠١٧م.
- وول ديورنت، قصة الفلسفة، تر. بدران محمد، دار نوبلس، تونس، ٢٠٠١م.

باللغات الاجنبية

- Anthony Kenny: A new History of western philosophy; clarendon; oxford.

المعاجم والموسوعات

- Boudon ; autres; Dictionnaire de sociologie; Larousse paris; 2001.
- The first edition 1998 London and New York: Routledge Encyclopedia of philosophy.
- Robert, Audi, The Cambridge dictionary of philosophy; Cambridge university press. second edition 1999.

مواقع الأنترنت

- Jérôme; Correspondence of Augustine and Jérôme concerning the Latin Translation of the Bible. <https://www.bible-researcher.com/index.htm>.